# الخطبة التاسعة والعشرون

## (طوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه)

الإمام الشاطبي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: 101/ 6 – 11].

القضية كلها بعد الإيمان بالله تعالى والعقيدة الصحيحة: قضية أعمال، إما أعمال تثقّل ميزانك يوم القيامة، أو أعمال تطيش ولا وزن لها. والويل كل الويل لمن يموت ويترك وراءه سيئات جارية، والفوز والنجاح لمن يترك وراءه حسنات جارية.

لذلك قال الشيخ أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين (74/ 2): «طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مئة سنة ومئتي سنة، أو أكثر يعذب بها في قبره، ويُسأل عنها» وهذا مقتبس من قوله عليه الصلاة والسلام من رواية أبي هريرة رضي الله عنه: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، ولا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، ولا ينقصُ ذلك من آثامهم شيئًا» رواه مسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: 1- من علّم علماً، 2- أو أجرى نهراً، 3- أو حفر بئراً، 4- أو غرس نخلاً، 5- أو بنى مسجداً، 6- أو ورّث مصحفاً، 7- أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته» صحيح الجامع (3596) - رواه البزار.

فالقضية مخيفة وخطيرة، فهذا المبتدع صاحب الأفكار والأعمال المخالفة للقرآن والسنة، والذي يحاضر وينشر البدع ويدعو إليها، فهذا يُصب في أعماله في حياته وبعد مماته ما نشره وما دعا إليه من البدع والمخالفات، وهذا الوالد الذي يفعل الفواحش ويتعلم أولاده منه، ورفقاء أولاده يتعلمون من أولاده ومن تبعهم، كل هذا في سجل سيئاته في حياته وبعد مماته وإلى ما شاء الله لهذه الفواحش أن تبقى. وهذا الذي لا يحسن صلاته، ولا يتقنها ولا يخشع بها، ولا يحافظ عليها في أوقاتها، فيتعلم أولاده منه وأولاد أولاده، فهذا كله في سجله يلقاه أمامه يوم القيامة. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: 36/ 12]، وهذا من العدل الإلهي المطلق؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 21/ 47].

لذلك كان حريّاً بنا أن نراقب أعمالنا وتصرفاتنا وأقوالنا لأننا مراقبون من قبل غيرنا من أهل وأقرباء وأصدقاء، وقد يكون هناك معجبين بنا يقلدوننا ويتخذونا قدوة لهم، ونحن قد نعلمهم وقد لا نعلمهم ولكننا أثرنا بهم، فهم في صحائفنا إن قلدونا، لذلك قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 16/ 25].

وقال ﷺ: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ولا ينقص من آثامهم شيئاً» مسلم (6980).

وهذا الأمر وهذه القضية في هذه المرحلة مهمة جداً، ولذلك أُنَوِّهُ وأُحذّر منها؛ لأن مسائل التواصل الاجتماعي اليوم لم تكن في حالة كهذه من أحوال التاريخ، فاليوم رسالة ترسلها قد تصل إلى الملايين، فإذا كانت خلاعة وفجور وفحش، تناقلها الناس وكنت أنت السبب، وإذا كانت بدعة وضلالة تناقلها الناس وكنت أنت المسبب، وإذا كانت شبهات -وما أكثرها اليوم- وتناقلها الناس وكنت أنت المسبب؛ كل هذا في صحيفتك، وكل هذا سوف تراه أمامك لا محالة، راجع الآيات والأحاديث التي ذكرتها لك، وليس لك مفر يوم القيامة وليس لك حُجَّة، فيدك وأصابعك تأتي شاهدة عليك يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 41/ 21 - 22]. فيا عبد الله اتَّقِ الله واحذر الآخرة التي قال فيها آدم عليه السلام: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»، وقال نوح عليه السلام مثل قول آدم عليه السلام، وقال إبراهيم عليه السلام مثل قول آدم ونوح، وقال موسى عليه السلام مثل قول آدم ونوح وإبراهيم، وقال عيسى عليه السلام مثل قول آدم ونوح وإبراهيم وموسى: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله» رواه مسلم.

فيا عبد الله اعمل لهذا اليوم وحافظ على حسناتك وتذكر دائماً قول الشاطبي رحمه الله عندما قال: طوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، أي: ليس له ذنوب جاريات. وحاول واحرص على أن تكون لك حسنات جاريات قبل أن يأتي يوم الندم وحينها لا ينفع الندم، وقد ذكرنا ربنا سبحانه وتعالى عن النادمين يوم القيامة وذكرهم حتى نتعظ ونتدارك أمرنا قبل فوات الأوان.

فقال تعالى: 1- ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 4/ 73]، أكون

مع المتقين، أكون مع الصالحين، وأرجو الله تعالى أن لا أكون ممن قالوا: 2- ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: 33/ 66]، وأرجوه تعالى أن لا أكون ممن قالوا: 3- ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: 6/ 27]، وأعوذ بالله العظيم أن نكون ممن أشرك مع الله، مثل هؤلاء الذين يَدْعُونَ الأموات، ويتمسحون بقبورهم، ويضعون الوشم على صدورهم وأيديهم بأسمائهم، ويكفنون أمواتهم بأكفان تحمل أسماءهم، يتركون الله الحي القيوم الذي بيده ملكوت كل شيء والقادر على كل شيء، والذي سوف يقفون بين يديه، يتركونه ويَدْعُونَ أمواتًا قد بليت عظامهم وأكلت الأرض أجسادهم، فهذا من الشرك الأكبر لو كانوا يعلمون، هؤلاء يوم القيامة يصرخون صرخة الندم ويقولون: 4- ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 18/ 42]، أي ليتني لم أشرك أحداً بأي خاصية من خصائص ربي، وخصائص ربي هي تفريج الكروب وإجابة الدعوات وغفران الذنوب وأرزاق العباد وإحياؤهم وإماتتهم وكل ما يتعلق بحياتهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: 39/ 62-67].

هؤلاء يوم القيامة يندمون ويتحسرون ويقولون: 5- ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: 25/ 27]، يا ليتني اتبعت السنة، يا ليتني لم أبتدع أو أتبع المبتدعين وأناصرهم وأكون في صفهم، يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، والحسرة التي بعدها: 6- ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان: 25/ 28]، لقد اتبعت أخي أو أبي أو صاحبي أو طائفتي أو عشيرتي، كل هؤلاء لا ينفعون، ندم وحسرة لمن لم يتبع سنة

رسول الله ﷺ وعندما يرى كتابه بشماله أو وراء ظهره يندم ويتحسر ولن ينفعه الندم والحسرة ويقول: 7- ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: 69/ 25 - 27]، والأمنية الأخيرة قوله: 9- ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: 89/ 24].

والكافر أيضاً يتمنى أن يكون كالحيوانات مصيرها إلى تراب، فيقول الكافر: 10- ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: 78/ 40]، فإياك يا عبد الله أن تكون من النادمين، وإياك من شياطين الإنس والجن، وإياك من وسوسة الشيطان فتكون من النادمين يوم القيامة والعياذ بالله أن تكون ممن يقول لشيطانه: 11- ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: 43/ 38].

1- يا عبد الله احرص على العقيدة الصحيحة، 2- احرص على إخلاص العمل لله، 3- احرص على اتباع سنة رسول الله ﷺ وسنة صحابته رضوان الله عليهم، واعلم أن النجاة كما أخبرك نبيك ورسولك وحبيبك وشفيعك يوم القيامة: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين شعبة، كلها في النار إلا واحدة، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي» د - ت - ن - وأصحاب السنن - وأصحاب المسانيد.

4- إياك والبدع والضلالات! 5- أمسك عليك لسانك، 6- حافظ على حسناتك، ولتكن لك حسنات جاريات في حياتك وبعد مماتك، 7- إياك والسيئات الجاريات! فإنها تأكل الحسنات من باب: فمن خفت موازينه، ومن باب: فمن ثقلت موازينه، 8- وإياك أن تغتر بأعمالك أو علمك! دائماً نحن مفتقرون إلى الله تعالى، 9- دائماً ندعو بالثبات حتى الممات، 10- نطلب منه تعالى القبول والرضا، 11- ويجب على الإنسان أن لا ييأس من رحمة الله تعالى، كما أنه يجب عليه: 12- ألا يأمن من عقاب الله تعالى ويَعُدّ نفسه من الناجين، فهو دائماً بين هذين الحدّين، لا إفراط ولا تفريط، لا يأس ولا أمان وهذا من معاني الآية العظيمة

الذي دار في فلكها وتفسيرها مئات الرجال وهي من أصعب الآيات وأعمقها؛ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: 8/ 24].

إن الخطاب موجه إلى المؤمنين بأن يستجيبوا لله ولرسوله، وقد يكون المعنى والله أعلم أن يستجيبوا لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله بتطبيقها وطاعتها والإذعان لها وأن يفعلوا الحسنات الجاريات وما إلى ذلك، وإن كان العكس والعياذ بالله وكانوا مسرفين على أنفسهم ومن أتباع الشهوات فإن الله سبحانه يذكرهم بأن يعودوا إلى جادة الصواب ويستجيبوا لله ورسوله، وهذه الاستجابة فيها حياتهم السعيدة الحقيقية الخالدة الأبدية، حياة الجنة، ثم يتبع القول بقوله: (وَاعْلَمُوا) وهذه للتنبيه وللفت الأنظار، وللدلالة بأن يسرعوا في الاستزادة من الخيرات والأعمال الصالحة، أو التوبة والرجوع إلى جادة الصواب قبل فوات الأوان، بالموت وانتهاء الحياة، فقول: (وَاعْلَمُوا) قيل: إن الموت قد يأتي بغتة، والموت بيد الله سبحانه، والموت يفرق بين المرء وبين ما يشتهيه المرء ويتمناه، والمعنى والله أعلم: أن كثيرين من الشباب يقولون: نتوب عندما نكبر. أو منهم من يقول: عندما أنتهي من كذا وكذا، أقرأ القرآن وأصلي وأعمل الصالحات.

يُسَوِّفُ فعل الصالحات، أو يُسوّف في التوبة من المعاصي، ولا أحد يعلم متى يأتي أجله، فهذه الآية فيها تحذير من التسويف، وفيها تحذير من الإبطاء أو التأخير في التوبة أو العمل الصالح أو التصديق، ونهاية الآية تدل على هذا الفهم لأن الآية تذكر بأن مرجوعك إلى الله، ومحشرك له سبحانه والحساب بيده سبحانه، لذلك اغتنم الفرص واستجب لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله عليه الصلاة والسلام، بالطاعات والالتزام والعمل الصالح؛ لأن هذا فيه حياتك الأبدية الخالدة السعيدة، وأن المآل إليه سبحانه وتعالى فهو الذي يجازيك بجنة عرضها السموات والأرض، أو نار تلظى والعياذ بالله.

وأُذكِّرَ نفسي أولاً وأخيراً بالتضرع إلى الله سبحانه، بأن يعيننا ويساعدنا ويتقبل منا ويهدينا ويثبتنا على دينه القويم وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، كما علمنا ربنا سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 1/ 5]، وكانت يمينه (أي: قَسَمه) عليه الصلاة والسلام: «لا ومقلب القلوب» البخاري.

وهذا مخيف جداً، لذلك لا بد من التضرع والتذلل إليه سبحانه وطلب الثبات حتى الممات وعدم الاغترار بالعمل الصالح أو حفظ القرآن، وهذه أمور جيدة، لكن إذا صاحبها غرور والعياذ بالله فتصبح طامة ومفسدة، لذلك نحن بين حدّين: الخوف والرجاء ونحن دائماً بإذنه تعالى نسعى نحو الخير وطاعة الله سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام وإذا أخطأنا أو شططنا عدنا واستغفرنا، لا نيأس ولا نقنط من رحمة الله، ولا نغتر بأعمالنا، واعتمادنا دائماً وتضرعنا دائماً لله تعالى، نستعين به على أنفسنا وشهواتنا وتقصيرنا. وكلنا ذوو خطأ، وقال عليه الصلاة والسلام: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» الترمذي، جه – الدارمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يَعْنيه» حسن، الترمذي. فإذا كان الذنب والخطأ من طبيعتنا وسلوكنا، فهذه الأحاديث لا تكون حجة لنا ولا مبرر لنا في الاستمرار بالذنب أو المعصية، بل من الواجب تصحيح السلوك وتجنب الذنوب والمعاصي والحرص على الاستقامة والتقوى، والخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل، وعدم القول على الله وعلى رسوله بغير علم، لكن نحن أمام الضعف البشري فإذا وقعنا في هذا الضعف فرحمة ربنا سبحانه تتجلى بأن يقبلنا إذا تبنا وأنبنا واستغفرنا وندمنا على ما فعلنا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: 42/ 25].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل» رواه مسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم –أي: طعامهم– فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً –أي: كثيراً– فأججوا ناراً» رواه أحمد والطبراني.

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**

**والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم**